

الفصل الثالث عشر

غزوة الخندق

علي (ع) وغزوة الخندق * الدلالات العلمية للنصوص * خصائص واقعة الخندق: 1- حالة الخوف من القتال عند الناس، لماذا؟ 2- الاحزاب: تحالف المشركين ضد الاسلام. 3- الظنون بالله: ضالة الايمان. 4- واقعة الخندق: الامداد الغيبي.

علي (ع) وغزوة الخندق

كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس بعد الهجرة، وتسمى بغزوة الاحزاب ايضاً. لان جيش العدو كان مؤلفاً من قريش وسائر القبائل _ علي ما بينها من التنافر والعداء _ ومن الموالي واليهود. وخبرها ان نفرأ من اليهود حزّبوا الاحزاب على رسول الله (ص)، فتعاونوا مع قريش على استئصاله (ص)، فقالت لهم قريش: يا معشر اليهود، انكم اهل الكتاب الاول والعلم بما اصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وانتم اولى بالحق منه. فأنزل تعالى فيهم: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً)¹. فخرجت قريش مع مجموعة من القبائل في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من كنانة واهل تهامة، واقبلت غطفان ومن تابعهم من اهل نجد، حتى نزلوا بمنطقة الى جانب أحد.

«فلما سمع بهم رسول الله (ص) وبما اجمعوا له من الامر ضرب الخندق على المدينة، وكان الذي اشار على رسول الله (ص) بالخندق: سلمان. وكان اول مشهد شهده سلمان مع رسول الله (ص) وهو يومئذ حر. وقال: يا رسول الله، إنا كنا بفارس اذا حصرونا خندقنا علينا»². فحفروا الخندق في ستة ايام، وكان النبي (ص) يحفر ويحمل التراب بنفسه (ص).

وخرج رسول الله (ص) مع ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب عسكره هناك. وقام نعيم بن مسعود بدور في التفريق والتحريض بين اليهود وقريش وغطفان على ضوء قوله (ص): ان الحرب خدعة³. ولكن نجم المعركة كان الذي قتل عمرو بن عبد ود، ومزق كبرياء المشركين وتعنتهم وهو علي بن ابي طالب (ع). فقد كان عمرو بن عبد ود فارساً مشهوراً يعدل بألف فارس، ومن ابطال قريش المزهوين المغرورين بقدراته الحربية. و«كان قد قاتل يوم بدر حتى اثبتته الجراحة، ولم يشهد أحد فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مشهده»⁴.

(¹) سورة النساء: آية 51 - 52.

(²) «تاريخ الطبري» ج 2 ص 566.

(³) نعيم بن مسعود: اسلم ولم يعلم قومه باسلامه، فامرهم رسول الله (ص) ان يجذّل عن المسلمين، فان الحرب خدعة. فاشار علي بن قريظة ان يأخذوا من المشركين رهناً من اشرافهم يكونون بايديهم ثقة لهم على قتال محمد (ص). وابلغ قريشاً بان اليهود قد غدروا بها وتعاهدوا مع رسول الله (ص). ونصح ابا سفيان بان اليهود لو بعثوا اليه يلتمسون منه رهناً من رجال قريش فلا يدفع اليهم رجلاً واحداً. وقال لغطفان مثلما قال لقريش وحذرهم مثلما حذر قريشاً (سيرة ابن هشام) بايجاز ج 3 ص 241.

(⁴) «المستدرک علی الصحیحین» باسناده عن ابن اسحاق ج 3 ص 32 - 33.

ودام حصار جيوش الاحزاب للمسلمين اكثر من عشرين يوماً، فليس فيها قتال إلا الترامي بالنبل والحجارة. وكان الفاصل بين المسلمين والمشركين هو الخندق. وفي الايام الاخيرة استطاع عدة فوارس من قريش اقتحام الخندق من موضع ضيق وهم: عمرو بن عبد ود، وعكرمة بن ابي جهل، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة، وهبيرة بن ابي لب. وكان اشدهم واوقحهم على المسلمين عمرو بن عبد ود. فقد ضرب رمحه في الارض واخذ يجول وهو راكب فرسه ويرتجز ويطلب البراز من المسلمين. فقام علي (ع) وقال: انا له يا نبي الله. فقال (ص): اجلس. ثم كرر عمرو النداء وجعل يهزأ بالمسلمين وبجنتهم وناهرهم ويقول: اين جنتكم التي تزعمون ان من قُتل منكم دخلها!! فقام علي (ع) ثانية فأجلسه النبي (ص)، ونادى عمرو الثالثة. فقام علي (ع) فأذن له النبي (ص). فتقدم علي (ع) بعد ان دعا له رسول الله (ص). وهو يقول:

لا تعجلن فقد اتا	ك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نبهة وبصيرة	والصدق منجا كل فائز
ابي لارجو ان اقيم	عليك نائحة الجنائز
من ضربة نجلاء	يبقى ذكرها عند الهزائز ⁵

فقال عمرو لعلي (ع): من انت؟

قال (ع): انا علي بن ابي طالب.

قال: ان اباك كان لي صديقاً ونديماً، واني اكره ان اقتلك!

قال علي (ع): ولكن والله ما اكره ان اقتلك. ثم قال علي (ع): يا عمرو انك كنت تقول: لا يدعوني

احد الى واحدة من ثلاث الا قبلتها.

قال: اجل.

قال (ع): ادعوك ان تشهد ان لا اله الا الله، وان محمداً رسول الله.

قال: نح هذه عني. هات الثانية.

قال (ع): ترجع الى بلادك، فان يك محمد صادقاً كنت اسعد الناس به، وان يك كاذباً كان الذي

تريد.

قال: اذن تتحدث عني نساء قريش ابي جبت، وخذلت قوماً رأسوني عليهم. هات الثالثة.

قال (ع): البراز!

قال: هذه خصلة ما كنت اظن ان احداً من العرب يروعي بها.

(⁵ م. ن. - ج 3 ص 32 - 33).

فقال (ع): كيف اقابلك وانت فارس وانا راجل؟

فاقتحم عن فرسه وعقمه، وسل سيفه وكأنه شعلة نار. وبادر بضرب علي (ع) ضربة اتقاها بالدرقة فقدتها السيف وشج رأس علي (ع). فضربه الامام (ع) على ساقيه فقطعهما جميعاً، فسقط على الارض. فأخذ علي (ع) بلحيته واحتز رأسه. وجزع الاعداء لمقتل سيدهم واميرهم، وأصابهم الخوف كما اصاب المسلمين اول الامر قبل مبارزة علي وعمرو. وبذلوا للنبي (ص) عشرة آلاف درهم ليعطيهم جثة عمرو، فقال (ص): هي لكم، لا نأكل ثمن الموتى.

ثم ارسل الله تعالى على المشركين ريحاً عاتية في ليلة شتائية شديدة البرد، فكفأت قدورهم، وطرحت أحييتهم، وما ان عتم الليل حتى نادى ابو سفيان بجنوده بالرحيل وقال لهم: يا معشر قريش، ان كنا نقاتل اهل السماء بزعم محمد، فلا طاقة لنا بأهل السماء. وحين علم رسول الله (ص) برحيلهم قال: الآن نغزوهم ولا يغزوننا.

وفي رواية اخرى ان رسول الله (ص) « البس علياً درعه الفضول وعممه عمامته وقال له: تقدم، فلما ولى قال النبي (ص): برز الايمان كله الى الشرك كله. وقال: رب لا تدرني فرداً، اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، ومن فوق رأسه ومن تحت قدميه. فاستقبل علي (ع) عمراً [فتبارزا كما اشرنا الى ذلك آنفاً]... فسمعنا تكبيرة علي (ع) فقال رسول الله (ص): قتله علي. وقال (ص): ابشر يا علي، لو وزن اليوم عملك بعمل امة محمد لرجح عملك بعملهم، فنزلت آية: (... وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا⁷⁶ . وروى الخوارزمي قول النبي (ص): «لمبارزة علي يوم الخندق افضل من عبادة الثقلين»⁸ .

وقد وصف الله سبحانه خوف المسلمين من الاحزاب بالقول: (... وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا)⁹، وقال المنافقون: كان محمد يدعنا كنوز كسرى وقيصر، واحدنا لا يأمن على نفسه ان يذهب الى الغائط. فكان عمل علي (ع) البطولي نقطة تحول عظيمة في نفسية المسلمين بعد ان زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر من الخوف، وبعد ان شككوا بالله ورسوله (ص) وظنوا بهما الظنون.

⁶ سورة الاحزاب: آية 25.

⁷ «بنايع المودة» ص 94 - 95.

⁸ «المناقب» - الخوارزمي ص 64.

⁹ سورة الاحزاب: آية 10.

وكان من دعائه (ص) الذي دعا به ربه سبحانه وتعالى يوم الاحزاب: «يا صريخ المكروبين ويا مجيب دعوة المضطرين ويا مجيب المهمومين اكشف غمي وكربي وهمي، فقد ترى حالي وحال اصحابي». وفي هذا الدعاء دلالات واضحة على الوضع النفسي الصعب الذي كان يمر به المسلمون قبل مقتل عمرو بن عبد ود.

الدلالات العلمية للنصوص

1- ان احجام المقاتلين المسلمين عن مبارزة عمرو بن عبد ود وقد دعا الى المبارزة، يعدّ في عرف ذلك الزمان بالخصوص _ بل في كل زمان _ اعظم انتكاسة لحملة الدين الجديد. فكيف يستطيع الانسان ان يدعي انه مؤمن بعقيدة ما، وليست لديه القدرة على مواجهة أعداءها؟ أليست المواجهة البطولية للعدو دليلاً على اليقين بصدق العقيدة؟ واذا كان عمل رجل مشرك واحد مثل عمرو بن عبد ود قد اربع المسلمين، فما هو موقفهم امام غيره من المقاتلين الشجعان؟ فكان لا بد لشخصية فريدة مثل شخصية الامام (ع) من الظهور على المسرح القتالي والتوجه بكل ثقة واقتدار لمواجهته.

ولذلك كان بروز علي (ع) اليه وقتله في تلك الواقعة الرهيبة من اعظم الاعمال التي قوت شوكة الايمان في الدين الجديد. فلا عجب ان يرجح عمل الامام (ع) ذلك، لو وزن مع عمل امة محمد (ص) مجتمعاً. ولا عجب ان تكون مبارزته افضل من عبادة الثقلين، وبروز الايمان كله على الشرك كله، كما ورد في الروايات.

ان فشل المشركين يوم الاحزاب في قتال المسلمين كانت له اسباب عقلانية منها: مناجاة رسول الله (ص) ودعاؤه بدفع الاذى عن الاسلام والمسلمين، واثارة سلمان بجحر الخندق، والريح العاتية في الليلة الشتائية، ومبارزة علي (ع) عمراً وقتله. فكان قتل عمرو احد اهم الاسباب في انكسار المشركين ورجوعهم خائبين الى مخابئهم في مكة. فقد كان عمرو امير جيش المشركين وعمادهم في زعزعة ثقة المسلمين بأنفسهم. فكان مصرعه عاملاً من عوامل القاء الرعب في قلوب الاعداء واذلالهم، وبعث الثقة بالنصر في نفوس المسلمين. ولذلك كانت ضربة علي (ع) يوم الخندق «اعظم من عمل الثقلين»¹⁰ كما قال رسول الله (ص)، وكما وصفها يحيى بن آدم: «ما شبّهت قتل علي عمرواً الا بقول الله عزّ وجل: (... فَهَزَمُوهُمْ يَا ذَنِي اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالوتَ...)»¹¹ 12.

¹⁰ «المواقف» - للابيحي ج 8 ص 371. ط سنة 1907 هـ.

¹¹ سورة البقرة: آية 251.

¹² «المستدرک على الصحيحين» - كتاب المغازي ج 3 ص 34 عن يحيى بن آدم.

2- ان مخاطبة عمرو بن عبد ود العامري لعلي (ع) قبل المبارزة: «ان اباك كان لي صديقاً وندماً، واني اكره ان اقتلك» كذب محض من قبل عمرو وادعاء لتغطية فشله. فلم يثبت تأريخياً ان ابا طالب (رضوان الله عليه) كان صديقاً لعمرو فضلاً عن كونه نديماً. وعمرو يعلم جيداً بطولة علي (ع)، فقد شهد بدرًا وأثبتته الجراحة من بطل الاسلام (ع). وقد قام علي (ع) بقتل النصف ممن قُتل يوم بدر. فلا يمكن التصديق انه لم يكن يعرف بطولة الامام (ع)، وهو الذي تغيب في أحد ظناً منه ان ما حصل في بدر سيحصل في أحد ايضاً. ويؤيد ذلك قول ابي الخير استاذ ابن ابي الحديد المعتزلي: «والله ما طلب عمرو الرجوع عن علي الا خوفاً منه، فقد عرف قتلاه ببدر وأحد، وعلم ان هو بارز علياً (ع) قتله علي، فاستحى ان يظهر الفشل، فظاهر هذا الادعاء، وانه لكاذب».

3- عندما كان علي (ع) مشغولاً بمبارزة عمرو بن عبد ود كان المسلمون مشغولين ايضاً بمراقبة تلك المبارزة على حذر وخوف. وكان النبي (ص) يلحظ، وما ان تناهى الى سمعه (ص) انتصار علي (ع) على عمرو، حتى قال (ص): لو وزن اليوم عملك بعمل امة محمد لرجح عملك بعملهم. وهو قول له مغزى عظيم. فقد كان عمل علي (ع) البطولي يوازي عمل امة بكاملها. ولكن اللافت للنظر هو ملاحظة عمر بن الخطاب في الحادثة. فقد كان عمر يفكر بدرع عمرو بن عبد ود وطريقة سلبه. وهو تفكير لا يتناسب مع الوضع الذي كان يمر به المسلمون. فقد روى ابن عساكر حول المبارزة: «ثم اقبل علي نحو رسول الله (ص) ووجهه يتهلل، فقال عمر بن الخطاب: هلا سلبته درعه فانه ليس للعرب درع خيرٍ منها؟ فقال: ضربته فاتقاني بسواته فاستحييت ابن عمي ان اسلبه...»¹³. وتلك فضيلة من فضائل الامام (ع). فشجاعته وبطولته الفريدة كانت لله ولنصرة دينه فحسب، ولم تكن من اجل غنيمة او درع استحسنته عمر واخذ بلباب عقله.

4- اشار سلمان على رسول الله (ص) بحفر الخندق لحماية المدينة. وهو عمل عسكري جليل اذا لاحظنا الظروف الصعبة التي كان يمر بها المسلمون آنذاك. فكانت اشارته تلك اشارة كريم مخلص كُتب باحرف من نور في صحائف التاريخ الاسلامي. وكان سلمان من بلاد فارس. وكان الامام الصادق (ع) يسميه سلمان المحمدي. وكان صادقاً في ايمانه، نزيهاً في نيته، موالياً لاهل بيت النبوة. وقد آخى النبي (ص) بينه وبين ابي ذر في المدينة.

وبعد وفاة رسول الله (ص) عُين اميراً على المدائن، فكان يكدّ ويشتغل ويأكل من عمل يده ولا يمدّ يده الى بيت المال ولا يأخذ منه شيئاً. وبحكم وظيفته كان عطاؤه خمسة آلاف درهم ولكن كان يتصدق به على المحتاجين ولا يأكل الا من عمل يده.

(¹³) «تاريخ مدينة دمشق» - ترجمة الامام علي بن ابي طالب (ع) ج 1 ص 154 رقم 217.

خصائص واقعة الخندق

تشابكت في غزوة الخندق خطوط متقاطعة، منها: الخوف من القتال عند الناس حيث كان منشؤه ضعف اليقين بقدره الخالق عزّ وجلّ، وعدم القطع بالملاكات الدينية. ومنها: الظن بالله ومنشؤه التوقف في منتصف الطريق بين الحقيقة ونقيضها. ومنها: البطولة الخارقة للامام (ع) التي قلبت ميزان المعركة رأساً على عقب، وحوّلت الهزيمة المحققة الى نصر حاسم.

1- حالة الخوف من القتال عند الناس، لماذا؟

قال الذكر المجيد في وصفه خوف بعض المسلمين يوم الاحزاب: (... وإذ زاعَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ...)¹⁴. وتأسيساً على ذلك نقول ان اهم الحواجز او الموانع التي تمنع الانسان من الاقتحام ثم الثبات في ساحات الوغى هو الخوف. فالخوف على النفس او المال او مطلق الملك يُنتج حالة نفسية تحتاج الانسان نستطيع تسميتها بـ «حالة القلق». والقلق ذاته _ وهو تردد الانسان في التفريط بالمكتسبات الدنيوية _ ينتج سلوكاً اجتنابياً. أي ان الخائف من ساحات الوغى، يعمل جهده من اجل اجتنابها او يعمل جهده في الفرار عندما يحمي الوطيس، او يتوسل بمختلف الوسائل من اجل ان يبقى في المؤخرة حيث يقلّ خطر المواجهة والموت.

والذي يخاف من القتل لا يلجُ الحرب. لأن في ساحة المعركة مناظر مرعبة تتضمن دماً مسفوكاً أو عضواً مبتوراً أو رأساً مقطوعاً. وكل تلك المناظر تذكّر الانسان بان احتمالية القتل او الموت قائمة في أي لحظة. هنا لو افترضنا ان شخصية الامام (ع) كانت غائبة في معارك الاسلام العظيمة، فماذا كان مصير الدين الجديد؟ وتعبير ثانٍ لو كان القلق والخوف يساور اشجع شجعان المسلمين، فهل تتوقع انتصار الدين على الشرك؟ كلا بالتأكيد. لان الدعوة الى الخير والفضيلة تحتاج الى جرأة وشجاعة وتضحية منقطعة النظير. ولذلك ندرك اهمية هتاف رسول الله (ص): «لمبارزة علي يوم الخندق افضل من عبادة الثقلين». أي ان بطولة علي (ع) الفائقة في ذلك الموقف انقذت المسلمين من هزيمة محققة، وثبتت دور الدين في المجتمع الانساني. ولذلك فان الذين يعبدون الله بعد رحيل علي (ع) يدينون بالفضل لبطلته المتميزة التي حفظت دينهم حياً الى يوم القيامة.

واذا كان الخوف عند الاطفال امراً غريزياً، فان الخوف عند الكبار يكون له منشأً نفسيً يتمثل بحبّ الدنيا وعدم الاستعداد للتفريط بأي مكسب دنيوي مهما كان قليلاً. فالذي يحب الدنيا يهرب من الموت،

(¹⁴) سورة الاحزاب: آية 10.

فيخاف المعركة لان فيها احتمالية قوية للموت. وبتعبير آخر ان الطفل قد يخاف من الظلام لسبب غريزي وليس لسبب عقلي، بينما يخاف الكبير من الحيوان المفترس لانه يرى خطورته على صعيد الموت والحياة والعقل. ويتجسد الموت على ساحة المعركة اكثر من أي ساحة اخرى.

والذي يدخل المعركة فانه يضع جسده في مشتبك الاسنة ومخالب السيوف. فالحرب لها آلتها المدمرة وهي السيف، ولها غايتها المؤقتة وهي القتل والدمار. وهنا يتميز المؤمن الذي يحب الموت لله سبحانه عن الذي يحب الدنيا ويفضلها على لقاءه تعالى. ويتشخص ذلك التمييز بالخوف. فالخوف من الموت او القتل هو الشعور الرئيسي الذي يصاحب المحاربين الذين لم يصل إيمانهم درجة اليقين.

والقاعدة، ان للخوف في المعارك الحاسمة طريقاً واحداً، وهو الفرار. وقد قال تعالى وهو يأمر المؤمنين المقاتلين بالثبات وعدم الفرار: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحِمًا فَلَا تُولُوهُمُ الْاُدْبَارَ . وَمَن يُؤَلِّمِهِ يَوْمئذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَكُفِّرْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)¹⁵. فالفرار هو طريق النجاة المؤمل عند المحارب الذي افتقد اليقين بعقيدته، فلا يقوى على الوقوف امام العدو وجهاً لوجه. اما الذي يكرّ على العدو ويثبت ولا يفرّ، فهو الذي يفتح الطريق لتحطيم الشرك وتثبيت شوكة الاسلام. وقد اثبت الامام (ع) ذلك في المعارك التي خاضها، فهو كرار غير فرار، لم يدخل الخوف قلبه ابداً. ذلك لان مقدار اليقين الذي كان يحمله (ع) كان مالئاً مساحتي قلبه وعقله بالتمام والكمال.

2- الاحزاب: تحالف المشركين ضد الاحزاب

يُفيد «التحالف» معنى المساعدة العسكرية المتبادلة بين اطراف جهة واحدة ضد جهة اخرى. فهو معاهدة عسكرية جامعة لاطراف متعددة من اجل محاربة العدو المشترك. وكان التحالف في غزوة الاحزاب بين بطون قريش وقبائل العرب تحالفاً عسكرياً منسقاً ضد عدو مشترك واحد هو الاسلام.

لقد كان الاسلام يمثّل خطراً جدياً يهدد نظام الشرك في الجزيرة العربية. فكان التحالف العسكري المضاد امراً طبيعياً من اجل دحر الاسلام ومسح وجوده الديني والاجتماعي من المدينة. ولم يكن تحالف المسلمين عسكرياً صرفاً، بل كان تحالفاً اقتصادياً واجتماعياً وعقائدياً جمعها العداة المشترك للدين الجديد.

والامضى من ذلك ان تحالفاً من ذاك القبيل لم يكن تحالفاً دفاعياً بحيث يبذل المتحالفون مهجهم من اجل الدفاع عن اموالهم واعراضهم، بل كان ذلك التحالف تحالفاً هجومياً تحريضياً من اجل سحق الاسلام.

(¹⁵) سورة الانفال: آية 15 - 16.

ولذلك كانت واقعة الاحزاب من الوقائع الخطيرة في التأريخ الاسلامي. ولولا مبارزة علي (ع) لعمر بن عبد ود التي بثت الرعب في شرايين المشركين، ولولا الرياح العاتية التي بعثها الله سبحانه لتخطيم خططهم، ولولا دعاء رسول الله (ص) للمسلمين بالنصر، لنجح ذلك التحالف في كسر شوكة الاسلام وهو بعد غضب يافع. فقد كان الالتزام المفروض على قوى التحالف ان تقتل المسلمين وتسحق وجودهم المدني دون ادنى شعور بالذنب او العار. لان القبائل العربية واليهود اجتمعت على كلمة اهاء المسلمين، فلم يبق احدٌ من العرب _ من غير القلّة المسلمة _ يعيّر المشركين بذلك.

ولا شك ان تحالف الاعراب في واقعة الخندق كان باهظ التكاليف للمشركين. لان الاستعداد العسكري يستهلك الموارد البشرية لتلك المنطقة الصحراوية التي يقل فيها الماء والغذاء وتعتمد على التجارة وبشكل اقل على الزراعة. وكلاهما يتطلبان موارد بشرية لتشغيل تلك الماكنة الاقتصادية من اجل انعاش المجتمع بموارد الحياة. ولكن التهيؤ للقتال يستنزف تلك الموارد البشرية. وكان الالتزام الملقى على عاتق المشركين المتحالفين هو التضافر من اجل مقاتلة المسلمين حتى لو لم تكن هناك غنائم ذات قيمة. لان الهدف من قتال المسلمين هو تحطيم الاسلام معنوياً وعسكرياً حتى لا تقوم له قائمة في المستقبل.

ولم يكن تحالف المشركين متجانساً من الناحية الفكرية او الدينية فقد جمع المشركين واليهود والذين في قلوبهم مرض، ولكنه كان متجانساً من ناحية عداوتهم للاسلام. ولذلك فقد كان تحالفاً خطيراً ضد الاسلام لانه كان تحالفاً مبدئياً على سحق الدين السماوي الجديد.

وعلى هذا الاساس فاننا نعدّ ذلك التحالف بين الاعراب ضد الاسلام، من اعراض الجاهلية وليس سبباً لها. فقد كانت الروح العدوانية للمشركين تبرز في كل معركة يتقاتلون فيها من اجل الفخر او البطولة او الغنيمة. ولم يكن للحرب عندهم من هدفٍ سامٍ الا هدف تحطيم الخير المتمثل بالدين الجديد.

3 - الظنون بالله: ضالة الايمان

وصف الله سبحانه خوف المسلمين من الاحزاب بالقول: (... وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا...)¹⁶. وقد تحدثنا آنفاً عن الخوف، وتحدث الان عن الظنون التي اشارت اليها الآية القرآنية الشريفة.

فالظن يعني ان الانسان متوقف في منتصف الطريق، بين الحقيقة ونقيضها. فهو غير مطمئن بالحقيقة كاملة ولا يصدقها تماماً، وغير مطمئن بنقيض الحقيقة ولا يكذبه تماماً. وظن السوء هذا يختلف عن الظن

(¹⁶) سورة الاحزاب: آية 10.

المعتبر. فالظن المعتر هو ان يكون للظن علة صحيحة مثل عدم اكتمال المقدمات. وعندما تكتمل المقدمات، يزول ذلك الظن ويصل الانسان الى درجة من درجات اليقين.

الا ان الظنون والشكوك التي انتابت البعض في غزوة الخندق كانت من نمط التوقف في منتصف الطريق بين الحقيقة ونقيضها. وذاك الذي قال: كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر، ولا يأمن احدنا الان ان يذهب لقضاء حاجته، ينطبق عليه هذا الوصف. ذلك ان الشك هنا كان مصحوباً بمشاعر الخوف والتردد والقلق، وهذا اسوء أنواع الظنون. لان تلك الظنون تهدم اركان الايمان بمبدأ القضية التي تم القتال من اجلها.

ومن الطبيعي، فان ظن السوء بالله تعالى لا يتوقف عند الجانب القلبي، بل يتسلق اسوار الحالة العقلية. فالشك او ظن السوء، حالة عقلية سلبية بالاضافة الى كونها حالة شعورية. وتلك الحالة مضادة للحالة العقلية الايجابية في الايمان والشجاعة والكرم. والفرق بينهما كالفرق بين الليل والنهار، والظلام والنور، والسلب والايجاب. ولم يكن الظن بالله سبحانه في تلك الواقعة ظناً عقلائياً منشأه الدليل، بل كان ظناً منشأه حالة شعورية متبلورة من ثنانيا الخوف من العدو.

والانسان - على الاغلب - لا يشك بالقضايا التي يسلم بصحتها ويعتقد بوجودها ومصداقيتها، ولكن القضايا التي تحتاج الى برهان، يتأمل فيها الانسان ويطلب الدليل. خذ مثلاً العملية الحسابية: $(4 = 2 + 2)$ فهي عملية حسابية لا تنشأ شكاً، لانها لا تحتاج الى برهان. اما الدين فهو بحاجة الى برهان من اجل ازالة الشك. وقد كانت معجزة القرآن الكريم كافية لازالة كل الشكوك العقلية التي يمكن ان تعترى الانسان في ذلك الزمان، بل في كل زمان. اذن ما هو منشأ الظن بالله من قبل هؤلاء الخائفين؟

في ضوء ما ذكرناه، نفهم ان الظنون بالله سبحانه كان منشأها الخوف من الموت وعدم اليقين، والتردد والقلق على مصير الذات، حيث وصفها الله سبحانه: (...وإذ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا...)¹⁷. ولذلك كان ظناً مرفوضاً على الصعيد الشرعي. لانه وضع الانسان الظان في منتصف الطريق بين الحقيقة ونقيضها. فلا هو متوجه الى اليقين، ولا هو متوجه الى الكفر والاحاد. ومن الطبيعي فان وضعاً كهذا يدعو للاعتقاد بانه لم تكن هناك ضرورة منطقية لهذا النوع من الشك، غير الخوف على الذات وضعف ارادة الذين زاغت ابصارهم وبلغت قلوبهم الحناجر وكانوا يظنون بالله الظنون.

(¹⁷) سورة الاحزاب: آية 10.

4 - واقعة الخندق: الامداد الغيبي

يعدّ الغيب من الحقائق التي حُذفت من محيطنا الانساني الخارجي، لكنه يعيش في ادراكنا الذهني عن طريق التعاليم الدينية والمعجزات التي نختبرها. ولذلك فمن الصعب فهم معنى الغيب لانه قضية غير حسّية ولا يمكن لمسها باليد، بل يمكن لمس آثارها . فالغيب امر منفصل عن عالمنا الدنيوي، وقد قال تعالى في كتابه الحكيم: (الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ...) ¹⁸ ، (...عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) ¹⁹ ، (... وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطَلِّعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ...) ²⁰ ، (... فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) ²¹ ، (عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا) ²² . والدين السماوي وحده يتناول عالم الغيب ويفصّل فيه ويشرح الامداد الغيبي.

ولا شك ان الغيب لا ينحصر ببعده واحداً، بل له أبعاد متعددة. فالاشياء المتصلة بالغيب يمكن ان تكون وجوداً أو شيئاً أو ملكاً أو واقعةً ؛ ويمكن ان تكون افراداً وأفلاكاً وأكواناً ؛ ويمكن ان تكون علاقات، وتغيرات، ورابطة علّة ومعلول ؛ ويمكن ان تكون مادةً أو عقلاً أو زمناً أو مكاناً. وبالاجمال، فان العلاقة بالغيب يمكن ان تشكل تصوراً عن العالم الآخر الذي لا نستطيع رؤيته او فهم وقائعه وأحداثه الا عن طريق الوحي والنبوة.

وعلى ضوء تلك الافكار، يمكن ترتيب نقاط فهمنا للغيب كما يلي:

- 1- ان فهم علاقتنا بالغيب بالنسبة لنا كأفراد لا تتم الا بالاستعانة بالمعاني التي تجلبها اللغة الدينية، وليس بالماديات المنحصرة بالدليل الحسي.
- 2- ان الدين يمثّل المبادئ العامة التي توصلنا الى معرفة الحقيقة المطلقة. والسبب في ان الدين يمثّل المبادئ العامة هو انه لا يستبطن تناقضاً ولا يستظهر علّة ناقصة.
- 3- ان الفارق بين الحقيقة الظاهرية والحقيقة الواقعية، هو ان الحقيقة الظاهرية متغيرة وغير ثابتة من عين لأخرى ومن عقل لآخر. بينما لا يشك احد بثبوت الحقيقة الواقعية، لانها متصلة بالغيب. وفي اطار هذه المفاهيم، فان فهم الغيب لا يتم عبر تجربة حسية او ملاحظة تجريبية، بل لا بد من ايمان به. فهنا نلتمس الايمان اكثر مما نلتمس الدليل الحسي. نعم، يمكن استظهار آثار الغيب وجعلها متمماً لدليل

(¹⁸) سورة البقرة: آية 1 - 3.

(¹⁹) سورة الانعام: آية 73.

(²⁰) سورة آل عمران: آية 179.

(²¹) سورة يونس: آية 20.

(²²) سورة الجن: آية 26.

حسي. الا ان الاصل هو ان الايمان بالغيب هو الدليل في اثبات الغيب، ولذلك قال تعالى في وصف المؤمنين حقيقة: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...) ²³.

فالايان بالغيب اذن، ضرورة منطقية لمعرفة عالم الحقائق المطلقة. ذلك لان صفات العالم الآخر وصفات الخالق والكائنات التي لا نراها كالملائكة والجن لا تخضع للدليل الحسي التجريبي. فكما ان الفكر عند الانسان مستقل عن الاعضاء ولا يتصل بالحس، فان الغيب مستقل عن عالمنا الدنيوي. ومن عرض هذه المقدمة ندرك ان الحفاظ على الاسلام في واقعة الخندق كان بفضل الامداد الغيبي الذي انزله سبحانه وتعالى على المؤمنين، وكان متمثلاً في ثلاثة امور:

الاول: سيف ذي الفقار وبطولة علي (ع) وشجاعته الفائقة التي كسرت جيش المشركين وجعلتهم يولون الدبر. ومع ان الشجاعة او البطولة صفة شخصية يمكن ان تُضاف لاي انسان، الا ان وجود علي (ع) في تلك اللحظة وذلك المكان وهو علي منزلته الدينية وقربه من رسول الله (ص) كان من امدادات الغيب. فالعطش في صحراء قاحلة قد يقتل الانسان، مع ان الماء موجود في مكان آخر على الارض. فالامداد الالهي يعني ان ينقل الماء في تلك اللحظة الى ذلك المكان لانقاذ ذلك الانسان المشرف على الهلاك، من الموت. فكان وجود علي (ع) في ذلك الموقف الصعب ملحوظاً بهذا اللحاظ.

الثاني: الريح العاتية التي كفأت قدورهم وجعلتهم عاجزين عن محاربة السماء بزعمهم. وهذا الامر تنطبق عليه نفس شروط الامر الاول.

الثالث: دعاء رسول الله (ص) بنصر الدين وكسر شوكة المشركين. وكان ذلك علة للنصر الذي نصر الله به المسلمين على المشركين. وقد كان الامداد الغيبي اكثر وضوحاً في بدر والاحزاب وحُين عندما نزلت الملائكة لتكثير سواد المسلمين وانزال الرعب بالمشركين. وقد قال تعالى في قصة الاحزاب: (... إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا...) ²⁴.

وهذا الامداد الالهي في واقعة الخندق جعل المؤمنين حقاً يشعرون بضخامة الجسر الذي يوصل الغيب بالحقائق الظاهرية في عالمنا المادي الذي نعيش فيه. فطالما لم يستبطن الدين تناقضاً ولم يستظهر علة ناقصة، وطالما وُعدنا بالنصر الحاسم على الشرك، كان لا بد من تحقيق ذلك الوعد. ذلك لان الوعد الديني متعلق بثبوت الحقيقة الواقعية. فكان من مقتضى ذلك، حتمية تحقق البشرى الالهية بالنصر. وليس غريباً ان نرى الامام (ع) آلة من آلات تنفيذ تلك البشرى العظيمة.

(²³) سورة البقرة: آية 3.

(²⁴) سورة الاحزاب: آية 9.

الفصل الرابع عشر

غزوة خيبر

علي (ع) وغزوة خيبر * الدلالات العلمية للنصوص * علي (ع) وخيبر: القدرة على ردع العدو: 1-
المستجدات الحربية. 2- مبدأ الردع. 3- تحقيق اهداف الردع. 4- عقلائية الردع.

علي (ع) وغزوة خيبر

كانت خيبر مدينة كبيرة على ارض الحجاز، ذات حصون ومزارع وقلاع ونخل كثير، وسكانها من اليهود. تبعد عن المدينة أربع ليالٍ تقريباً. وتاريخ غزوة خيبر هو جمادى الاولى من السنة السابعة للهجرة. فبعد فشل الاحزاب ورحيلهم عن المدينة على ما يشبه صورة الانهزام، قويت شوكة المسلمين في الجزيرة العربية. وبات المشركون يحسبون لقوة النبي (ص) المتنامية ألف حساب. وبدأ القلق والخوف يدبّان في نفوس يهود خيبر، فشرعوا يؤلّفون جبهة عسكرية من بعض القبائل والاعراب ضد المسلمين.

فعلم رسول الله (ص) بذلك، فحشد لهم جيشاً في الف وأربعمائة مقاتل وسار اليهم. وكان علي (ع) ضمن ذلك الجيش. فتحصّن يهود خيبر في قلاعهم، وراحوا يقاتلون من وراء الجدران بالنبل. وحاصرهم رسول الله (ص) أكثر من عشرة أيام، ثم عزم على فتح الحصون.

قال ابن هشام راوياً باسناده عن ابي معتب بن عمرو: ان رسول الله (ص) لما أشرف على خيبر قال لاصحابه، وأنا فيهم: قفوا. ثم قال (ص): اللهم ربّ السماوات وما أظللن، وربّ الارضين وما أقللن، وربّ الشياطين وما أضللن، وربّ الرياح وما أذرين، فانا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرّها وشرّ أهلها وشرّ ما فيها، أقدموا بسم الله. قال: وكان يقولها (ع) لكل قرية دخلها²⁵.

ينقل احد المحاربين صورة الوضع العسكري، فيقول: «حاصرنا خيبر فأخذ اللواء ابو بكر، فانصرف ولم يفتح له، ثم اخذ من الغد عمر فخرج فرجع ولم يفتح له، واصاب الناس يومئذ شدّة وجهه. فقال رسول الله (ص): اني دافع اللواء غداً الى رجل يحبّه الله ورسوله، ويحبّ الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح له. فبتنا طيبةً أنفسنا ان الفتح غداً. فلما ان اصبح رسول الله (ص) الغداة، قام قائماً فدعا باللواء والناس على مصافهم فدعا علياً، وهو أرمد [فنفث] في عينيه، ورفع اللواء...»²⁶.

وصمّم علي (ع) خطته في استدراج ابطال خيبر للخروج الى السهل حتى يستطيع ان يواجهم رجلاً برجل، وإلاّ فأى حرب تكون من وراء الجدران؟! فتخفف (ع) من الدروع الثقيلة لتسهل عليه الحركة، وأمام مخيلته وصية رسول الله (ص) له: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم الى الاسلام، فان لم يطيعوا فقاتلهم. فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم. فدعاهم الى الاسلام ولكنهم رفضوا وسخروا منه. فطالبهم ان يبعثوا اليه شجعانهم. فخرج اليه الحارث احد شجعانهم فصرعه علي (ع)، وخرج اليه آخر فصرعه ايضاً. فتحلّاهم علي (ع) بأن يبعثوا اليه شجاعاً يثبت في المعركة.

²⁵ «سيرة ابن هشام» ج 3 ص 343. عن ابن اسحاق قال: حدثني من لا اتم عن عطاء بن ابي مروان الاسلمي، عن ابيه، عن ابي مُعَبِّب بن عمرو.

²⁶ مسند احمد ج 5 ص 353 - 354. رواه احمد باسناده عن بريدة.

فخرج «مرحب» - وهو من ابطالهم - يخطر بسيفه، والحديد يغطي رأسه وساقيه وليس في بدنه ثغرة
ينفذ منها سيف العدو، فقال مرتجراً:

قد علمت خبير أنني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
إذ الحروب اقبلت تلهب

فأجاب علي بن ابي طالب (ع):

أنا الذي ستمتني امي حيدرة كليث غابات كربه المنظرة
أوفيهم بالصاع كيل السندرة

ففلق (ع) رأس «مرحب» بالسيف وكان الفتح على يديه²⁷. فذعر اليهود من بطولة علي (ع).
واندفع (ع) الى باب الحصن فاقتلعه، فاتحاً الطريق للمقاتلين المسلمين باقتحام مخاضى اليهود ودك حصونهم
ومقاتلتهم، حيث كانوا يفرّون فرعين من حصن لآخر. ولكن مقاومتهم العسكرية سرعان ما انهارت، وبدأوا
يعلنون استعدادهم للاستسلام وقبول الهزيمة.

وكان رسول الله (ص) قد توجه الى السماء ودعا لعلي (ع) قبل ان يبرز لـ «مرحب» بالقول: «اللهم
أتك اخذت مني عبيدة بن الحارث يوم بدر، وحمزة بن عبد المطلب يوم أحد، وهذا علي فلا تذرني فرداً وأنت
خير الوارثين»²⁸.

روى الحموي باسناده عن ابي رافع مولى النبي (ص) قال: «خرجنا مع علي حين بعثه رسول الله (ص)
برايته فلما دنا من الحصن، خرج اليه اهله فقاتلهم . فضربه رجل من يهود، فطرح ترسه من يده. فتناول علي
باب الحصن فتنرس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه. ثم ألقاه من يده، فلقد رأيتني
في نفر معي سبعة أنا ثامنهم نجهد على ان نقلب ذلك الباب فما استطعنا ان نقلبه»²⁹.

وروى باسناده عن جابر بن عبد الله، قال: «حمل علي باب خبير يومئذ حتى صعد المسلمون عليه
ففتحوها، فجرّب بعده فلم يحملة الا اربعون رجلاً»³⁰. وروى ابن حجر العسقلاني باسناده عن جابر: «ان
النبي (ص) لما دفع الراية لعلي يوم خبير اسرع فجعلوا يقولون له ارفق، حتى انتهى الى الحصن فاجتذب بابه
فألقاه على الارض ثم اجتمع عليه سبعون رجلاً حتى أعادوه»³¹. وروى البدخشي باسناده عن جابر بن عبد

(²⁷) م. ن. - ج 4 ص 52 رواه احمد باسناده عن سلمة.

(²⁸) «كنز العمال» ج 11 ص 623.

(²⁹) «فرائد السمطين» - الحموي ج 1 ص 261. و«الكامل في التاريخ» - ابن الاثير ج 2 ص 220. و«وسيلة المال» - بن باكير. ص 223.

(³⁰) «فرائد السمطين» ج 1 ص 261.

(³¹) «الاصابة في تمييز الصحابة» - ابن حجر العسقلاني ج 2 ص 509.

الله (رضي الله عنه) قال: «حمل علي الباب على ظهره يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها، وانهم جروه بعد ذلك فلم يحملة الا اربعون رجلاً»³².

قال الشاعر يصف بعض ما وقع يوم خيبر:

ويوم خيبر اذ عادوا برايته
فقال ابي سأعطيها غداً رجلاً
كما علمت لخوف الموت هرابا
غيبه الله فانظر هل دعا احداً
ما كان في الحرب فراراً وهيابا
غير الوصي فقل ان كنت مرتاباً³³

الدلالات العلمية للنصوص

1- القدرة الخارقة عند علي (ع): دلت حادثة قلع الباب على شجاعة الامام (ع) في نفسه وقدرته

العجيبة في الحروب، كما ذكرنا ذلك في الفصول السابقة. والى ذلك اشار الشاعر بقوله:

يا قالع الباب الذي عن هزّه
عجزت أكف اربعون واربع

فجعله جسراً على الخندق تعبر عليه جيوش المسلمين. وقيل: ان اليهود كانوا قد وظفوا اثنين وعشرين

رجلاً لاغلاقه او فتحه نظراً لضخامته وثقله. فما مغزى تلك القدرة الخارقة عند علي (ع)؟

لا شك اننا عندما نتحدث عن القدرة الخارقة للامام (ع) فاننا نقصد بالقدرة الخارقة للعادة لا القدرة الخارقة للطبيعة. والفرق بينهما كبير، فقد يحفظ طفل صغير القرآن كاملاً وهو في عمر أربع سنوات مثلاً. فهذه قدرة خارقة للعادة باعتبار ان الاطفال في تلك السن لا يقدرّون على ذلك. ولكنها ليست خارقة للطبيعة لان تلك القابلية محتملة في ظروف معينة. بينما اذا نزل الوحي بالقرآن على نفس ذلك الانسان فان تلك تكوين قدرة خارقة للطبيعة. وكذلك بطولة علي (ع)؛ فاننا عندما نصفها بالبطولة الخارقة للعادة، فاننا نروم القول الى ان تلك البطولة لم تكن مرتبطة بالوحي. بل انها كانت خارقة للعادة التي ألفها الناس في الشجاع والبطل الفريد. فتلك حالة عقلية مرتبطة باسباب كماله (ع) ويقينه وارتباطه بالله عزّ وجلّ.

وقد ذكرنا سابقاً ان شجاعته (ع) حالة عقلية مصدرها الذوبان التام بالله سبحانه. والى ذلك يفسّر

قوله (ع) بخصوص باب خيبر: ما قلعتها بقوة مادية وانما بقوة الهية.

2- اختلاف الآراء في عدد من حمل الباب: ان اختلاف الروايات في عدد الذين قلبوا باب خيبر او

عدد الذين حملوها او اعادوها الى وضعها السابق يدلّ على ان القدرة التي بذلها (ع) في قلع الباب كانت

³² «مفتاح النجاء» - البديخشاني باسناده عن جابر بن عبد الله ص 46.

³³ «المناقب» - ابن شهر آشوب ج 3 ص 130.

خارقة بحيث أصبحت حديث الجيش في معركة حاسمة مثل معركة خيبر. فلو كانت القضية عابرة لما احدثت ضجة نسمع صداها في اروقة التأريخ لحد الساعة. والظاهر ان الذين حملوا الباب كانوا اربعين نفرًا، وهو الاقرب للصحة لتواتر الروايات في ذلك. ولان عدد السبعة او السبعين يدل على المبالغة مع عدم التعيين . اما رواية ابي رافع فهي تدل على عجز الثمانية عن قلب الباب. فلا دلالة له هنا على تحديد عدد الذين قلبوا تلك الباب.

3- الردع: كان من اهم آثار بطولة علي (ع) الخارقة في تلك المعارك ردع المشركين من الاستمرار بالحرب ضد الاسلام. ذلك لان تلك البطولة خلقت تصوراً لديهم بأنهم لا يستطيعون الانتصار على الاسلام فضلاً عن سحقه وتدميره، كما سنلاحظ في بحثنا حول بطولة الامام (ع) ودورها في ردع العدو.

علي (ع) وخيبر: القدرة على ردع العدو

كانت حصون خيبر من أقوى الحصون المسلحة في الجزيرة العربية. فقد كان اليهود يفضلون الحياة مع حبك المؤامرات ضد أعدائهم، على القتال وجهاً لوجه. والمعروف عنهم انهم كانوا ولا يزالون يشعلون الحروب ولا يشتركون فيها على صعيد المعارك. ولذلك فقد بذلوا اموالاً طائلة في بناء حصون منيعة تحميهم من عوادي الزمن وتجنّبهم آلام الحروب المضادة. وكان لذلك الاندفاع نحو بناء الحصون المنيعة منشأ نفسي حيث بنوا حياتهم على اساسه. فالمشهور عنهم الخيانة والغدر، ولذلك كانوا لا يؤمنون على أنفسهم من احد. وقد قال تعالى في وصف اجلاء بني النضير من اليهود عن المدينة لما نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرِّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)³⁴، (لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ)³⁵.

وقد بدا واضحاً حجم الضرر الذي اصاب المسلمين من تحالف اليهود مع المشركين. فكانت واقعة خيبر بالنسبة لليهود حرباً مدمرة ومربكة في نفس الوقت. كانت حرباً مدمرة لانها كانت آخر ضربة قاتلة وجهت من قبل المسلمين لدولتهم المصعرة بسبب خيانتهم وغدرهم وتحالفهم مع المشركين والمنافقين. وكانت

(³⁴) سورة الحشر: آية 2.

(³⁵) سورة الحشر: آية 14.

حرباً مربكة، لان شجاعة علي (ع) واستدراجه لابطالهم قد اربكتهم واخرجتهم عن طورهم في التحصن بالقلاع المنيعه وعدم منازلة العدو.

فكان دور علي (ع) في معركة خيبر حاسماً، لانه وضع دويلتهم على حافة الانهيار والضمور ككيان مستقل. وبدأت الحرب الابتدائية الاسلاميه _ بفضل بطولته الفريده (ع) _ تظهر وكأنها وصلت الى مرحلة عالية من الطاقة التدميرية التي تهدد القوى العظمى في عالم ذلك الزمان وهي بلاد فارس ودولة الروم بالاضافة الى قريش.

1- المستجدات الحربية:

ان فتح خيبر وشجاعة علي (ع) مهّدت الطريق نحو ظهور ثلاثة مستجدات:

الاول: على مستوى المحاربين المسلمين: فقد برزت اجواء الافتخار والعزم على مواصلة القتال من اجل تطيب الارض من رجس المشركين. فطالما وُجد بطل مثل علي (ع) قدوة في الاخلاص والتفاني والاقدام، فان النصر سيكون حليفهم دون شك. وان انتظار دولة الاسلام العالمية المنصورة سوف لن يكون طويلاً. ويؤيد ذلك التوجه شعور المقاتلين المسلمين نحو الامام (ع) عند قتل مرحب وقلع الباب ومحاوله افناء العدو عن بكرة ابيه ، كما لمسنا ذلك في الروايات التي قرأناها في صدر هذا الفصل.

الثاني: على مستوى العالم: فان انتصاراً من هذا القبيل كان يخلق الاجواء الذهنية لتقبل بروز ادارة دينية واجتماعية جديدة للعالم في ذلك الوقت. وهذا يساعد الدين الجديد على احتلال موقعه الطبيعي في قلوب الناس.

الثالث: على مستوى الردع: والانتصار الساحق لجيش المسلمين يقلل من فرص ظهور قوى تحالف جديدة منافسة للاسلام، عدا القوى التقليدية التي تحاول الصمود بأي ثمن.

وقد كان جيش المسلمين بقيادة رسول الله (ص) يحاول كسب نصر حاسم في كل معركة رئيسية مع طرف من اطراف العداء الديني ضد الاسلام. ذلك لان النصر العسكري الحاسم يقنع الناس من اصحاب القلوب الضعيفة المترددة، بأحقية الدين في الوجود. والاصل في ذلك، ان الفرد اذا لم يقتنع بالطريق الذهني والدليل العقلي فلا بد من قوة مادية _ حربية على الاغلب _ تقنعه بصحة متبنيات الرسالة السماوية الجديدة.

وهذا لا يقتصر على قوة دون اخرى. بل يشمل كل القوى التي كانت تحارب الاسلام كقوى المشركين ، والمنافقين ، واليهود، والروم، والفرس. وكان على الاسلام _ من أجل ان يبقى _ ان يحقق نصراً

حاسماً على كل طرف من تلك الاطراف المناوئة. ولذلك كان القرآن الكريم يحثّ على القتال، على ما سندرسه في الفصل التاسع عشر من هذا الكتاب، باذنه تعالى.

فالمشكلة التي كانت تواجه الدين الجديد لا تكمن فقط في الاقناع القلبي والذهني عبر اعجاز القرآن الكريم، وهو لا شك اقناع اعجازي هائل. بل كان لابد من معارك طاحنة ضد الذين اغلقوا قلوبهم واذهاهم للدليل الشرعي القرآني. فكانت الشجاعة الخارقة والبطولة الفريدة المتميزة مطلوبة وحاسمة في تقرير مصير تلك المعارك. وعندها كانت تلك الشجاعة وتلك البطولة من العوامل الحاسمة في تقرير مصير الدين ايضاً. ومن هذا المنطلق نلمس اهمية شخصية الامام (ع) القتالية في الميدان. فلولا تلك الشخصية الفريدة في البطولة والاقدام والتضحية والافتداء برسول الله (ص) لكان الدين في وضع آخر يختلف عمّا نراه اليوم.

2 - مبدأ الردع:

يعني الردع محاولة خلق تصور لدى العدو بأنه لا يستطيع الانتصار على المسلمين بأي طريقة من الطرق. فيقوم عندها بمصالحة المسلمين على الجزية او اعلان معاهدة سلام بين الطرفين، او الاستسلام دون قتال، او الدخول في الاسلام. وهدف الردع في النهاية هو تقليل كمية الدماء التي قد تسفك في حروب يغيب فيها الرادع الحقيقي . وبكلمة، فان الردع يجنب وقوع الحرب لان الطرف الآخر يتصور انه لا يستطيع ان يحقق الانتصار فيها. وطالما كان الضعيف يخاف القوي، فان الردع لا يؤدي الى تجنّب الحروب فحسب، بل يؤدي الى دخول المستسلمين في الدين حتماً. وهذا هو عين ما يريده الاسلام. فالاسلام دين سلم و سلام وامان، لا دين حرب وقتل ودماء. ولذلك قيل ان الاسلام يريد من الاعداء المحاربين ان يكونوا اما مسلمين أو مسلمين.

ذلك ان الرسالة الدينية تدخل قلب الانسان اذا توفّرت الاجواء المناسبة لها. وقد أشار تعالى على المسلمين بالاعداد العسكري من اجل ارباب اعداء الله وارجاعهم الى طريق الهداية: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُّوا اللَّهَ وَعَدُوَّكُمْ...)³⁶، وعندها اذا انفتح عقله وقلبه للدين فـ: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...)³⁷. لان الاعتقادات من الامور القلبية التي لا يحكم فيها الاكراه والاجبار. فان الاكراه انما يؤثّر في الاعمال الظاهرية، بينما للاعتقاد القلبي علل وأسباب اخرى من قبيل الايمان والادراك.

(³⁶) سورة الانفال: آية 60.

(³⁷) سورة البقرة: آية 256.

وفي ضوء الايمان بمبدأ الردع كمبدأ أساسي في الحروب، فاننا نستطيع القول بأن الردع الذي استخدمه الامام (ع) ضد المشركين ادى ثماره التاريخية. ولكن لم تكن تلك الثمار خالية من ثمن باهض دفعه علي (ع) لاحقاً. وبصورة تقريبية، يمكننا ان نشير الى ان آثار الردع كانت عظيمة، عبر ترتيب النقاط التالية:

1- كانت احلى نتائج الردع الاسلامي هو فتح مكة. فبسبب تعاضم قوة المسلمين اذعن المشركون لتلك القوة، وأيقنوا ان لا سبيل لهم الا الاستسلام والدخول في باحة الدين الجديد. فكان الردع أداة فعالة لتجّيب سفك الدماء، وكان وسيلة لدخول الناس في دين الله أفواجاً. كما اشار تعالى الى ذلك بالقول: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)³⁸.

2- ان نظرية الردع كانت تعطي مفهوماً متناسقاً ومتناسكاً عن الحرب في الاسلام. فالحرب ليست غاية بذاتها وانما وسيلة من وسائل تحقيق حكم الله على الارض. فان تحقق ذلك دون حرب، هو الغاية المرجوة. لان هدف الاسلام هو تحقيق العدالة الحقوقية بين الناس وتعبيد المجتمع الانساني لخالفه عزّ وجلّ.

3- كان تواجد علي (ع) الفعال في ساحات المعارك يصول ويجول في سبيل الله تعالى، عاملاً من عوامل الردع العملي ضد المشركين. فقلع الباب العظيم ومبارزة ابطال المشركين كمرحب وغيره وصرعهم، وقتل النصف ممن قُتل في بدر، وقتل المشركين في أحد، ومبارزة عمرو بن عبد ود يجعل نظرية الردع صالحة. ويجعل التوازن الاستراتيجي البعيد المدى يميل رويداً رويداً لصالح الاسلام.

4- مع ان نظرية الردع كان لها تأثيرٌ آنيٌ على المعارك التي خاضها رسول الله (ص) وكان علي (ع) جندياً من جنودها، الا ان التهديد بالانتقام من الامام (ع) بقي قائماً على المدى البعيد. وقد تحمّل الامام (ع) ذلك وهو يعلم ان المشركين الذين اظهروا اسلامهم، سوف يدبرون له ولذريته الخطط للانتقام. وقد بدا ذلك واضحاً في القرون الثلاثة التي تلت وفاة رسول الله (ص).

3 - تحقيق اهداف الردع:

ان الطاقة التدميرية الهائلة ضد الشرك التي ابرزتها شجاعة داحي الباب (ع) في خيبر، أفرزت تساؤلاً واسعاً بين المشركين حول مدى تأثير تلك الطاقة على ميزان المعارك القادمة مع الشرك في كل مكان. وذلك التساؤل والقلق كانا يؤديان في وقت ما الى ردع نفسي وعقلي للمشركين عندما يحمي وطيس الحرب مع المسلمين، ولنطلق على ذلك الردع بـ «الردع العلوي».

(³⁸) سورة النصر: آية 1 - 3.

ونقصد بالردع العلوي هنا: التأثير الحاسم المفترض من قبل بطولة علي (ع) على طبيعة البدائل عند المشركين، ومنها الحرب أو السلم أو الاستسلام دون قيد وشرط أو الدخول في الاسلام. وهذا الردع يؤدي في النتيجة الى تعديل سلوك الطرف المعادي والابتعاد عن طريق الشرّ أو تغييره نحو طريق الخير. لقد كان المشركون يعتبرون الحرب افضل الوسائل لردع المسلمين وحسر رسالتهم من الانتشار بين امم الارض. واذا بهم الآن، وبفضل البطولة الفائقة لداحي الباب (ع)، يواجهون ردعاً من قبل المسلمين انفسهم. وعندما نتحدث عن الردع الذي انزله علي (ع) بالمشركين، فاننا لا نقصد به ردع جنود المشركين فقط، بل نقصد به ردع القادة عن اتخاذ قرار الحرب.

وقد ظهر واضحاً بعد خبير ان قادة المشركين في مكة كانوا قد قرروا اعادة تنظيم بدائلهم، فاختاروا عدم محاربة المسلمين في قضية فتح مكة، وهم على ما عليه من قوة وعدّة وعدد. لان الحرب كانت تعني تحطيم مفاتيح قيادتهم وشركهم، بل ازهاق نفوسهم الشريرة. فاختاروا البديل الاضعف وهو طلب الامان من رسول الله (ص). ولو كانوا يعلمون ان في المسلمين ضعفاً وجبناً لاختاروا بديل الحرب والاستهتار بقيم الدين دون أدنى شك. وبذلك نفهم ان بطولة علي (ع) كانت رادعاً عظيماً للمشركين بعدم اختيار الحرب كبديل ضد المسلمين.

واذا آمننا بان البطولة الخارقة تعدّ أهم وسائل ردع المشركين عن غيهم ومحاربتهم الاسلام، فلا بد لنا من الايمان بان الفرار من المعركة من قبل بعض المسلمين كان من اهم وسائل تقوية الشرك ضد الاسلام. لان الفرار يعني الهزيمة في الفكرة والمعتقد والمبدأ. فلا عجب ان نلمس اجماع المفكرين المسلمين على ادانة الذين فروا من القتال في معارك أحد وحّين وذات السلاسل ورجعوا خائبين لا يلوون على شيء في خبير وغيرها. فالبطولة الفائقة ضد المشركين تعني تطهير الارض منهم ومن شركهم وفسقهم، بينما يعني الفرار من قبل بعض المسلمين تنجيس المسلمين بشرك المشركين وفسوقهم ووثنتهم. وهنا يكمن الفرق بين الكر والفر، وبين البطولة والجبن، والاقدام والتخاذل. وقد قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تُولُوهُمُ الْأُدْبَارَ)³⁹، (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا...)⁴⁰. وكان الذين اخذوا اللواء قبل علي (ع) انصرفوا ولم يُفتح لهم، وعندها اصاب الناس يومئذ شدة وجهد، كما ذكرنا ذلك سابقاً. ولكن، ومع تلك العوارض، كانت بطولة علي (ع) سبباً من اسباب ردع المشركين عن اختيار بديل الحرب ضد الاسلام. ذلك لان بطولة علي (ع) كانت تهديداً كافياً لانزال مستوى انتصار المشركين ضد

(³⁹) سورة الانفال: آية 15.

(⁴⁰) سورة الانفال: آية 45.

الدين الجديد من مرحلة القطع والحسم الى مرحلة ادنى وهي مرحلة الاحتمال في المعارك الاولى، ومن مرحلة الاحتمال الى مرحلة اليأس في المعارك اللاحقة.

وبذلك تمكن الامام (ع) من خلال بطولته الرادعة جنباً الى جنب مع رسول الله (ص) الى تحقيق ثلاثة امور عجز عن تحقيقها بقية المقاتلين من المسلمين، وهي:

1- وضع الحرب على خشبة المسرح العقلائي. بمعنى ان العدو اذا كان يفكر سابقاً بنزوات انتصاره واوهام الاستيلاء على غنائم المسلمين، فانه اليوم _ وبفضل تحقق الردع _ اصبح يفكر باجتنااب الهزيمة التي سيُمنى بها دون شك. والقاعدة ان الردع اذا كان قوياً فان العدو سوف يفكر بالاستسلام دون اراقة مزيد من الدماء.

2- جعل التهديد الرئيسي ينبعث من وسط معسكر المسلمين ضد معسكر المشركين. أي انه جعل المسلمين اصحاب المبادرة في التهديد وشن الحرب، وجعل المشركين ادوات للاستجابة لتلك المبادرة، كما حصل في استدراج «مرحب» الى القتال والمبارزة. وبمعنى ثالث انه جعل المسلمين في موضع الهجوم وجعل المشركين في موضع الدفاع. وهذا تبديل استراتيجي بعيد المدى لصالح الاسلام.

3- ساهمت بطولة علي (ع) في تحديد عدد البدائل التي كانت متاحة للعدو، وجعل الدخول الى الاسلام او الاستسلام دون قتال اهم البدائل، وجعلت بديل الحرب ادنى البدائل حظاً في الاختيار من قبل العدو.

4- عقلائية الردع:

والاصل في الردع انه يؤدي الى احتمالية قوية لقرار اقرب الى العقلائية من قبل العدو، يكشف بان اجتناب الحرب في ذلك الموقف افضل من تكبد الخسائر الفادحة التي يسببها الوقوف بوجه تلك البطولة الخارقة للعادة. فالبطولة العلوية لم يكن هدفها اراقة الدماء، بل كان هدفها ردع العدو عن الاستمرار بالحرب، واحياء الضمائر الميتة وحثها على الايمان بالله سبحانه و برسالة محمد المصطفى (ص). وبذلك فقد حققت تلك البطولة دماء الناس على صعيد المقاتلين في جيش المسلمين وعلى صعيد المغرر بهم في معسكر المشركين من اجل ان يدخلوا الاسلام

فمبدأ الردع يركّز على اجتناب الحرب لمبررات عقلائية، وهي اجتناب الهزيمة في حالة الدخول في حرب مع الاسلام. وهذا سلوك لو تحقق، مع قوة المسلمين، لأدخل الكثير من الناس في الاسلام. لان الاسلام دين سلم وسلام ومحبة وليس دين حرب وقتال واكراه كما مر سابقاً. فدور الردع هنا هو ان يعلم العدو انه

لا يستطيع اختيار البديل المُكلف وهو الحرب والقتال والموت المحقق. فعليه ان يقبل بما هو اقل من الحرب والقتال والموت، وهو الاستسلام او الدخول في الاسلام. وهذا هو مبدأ العقلاء.

ولا شك ان حجم الردع والتهديد كان متناسباً تناسباً طردياً مع القدرة على انزال الدمار بالعدو، التي هي اثر من آثار القدرة البطولية الخارقة. فكلما كانت البطولة خارقة، كان الردع اعظم واطهر. ومن الطبيعي فان هذا الامر لا يتعلق بكمية الاسلحة التي كان يملكها البطل الخارق للعادة في ذلك الوقت، بل يتعلق حتماً بمقدار التضحية والشجاعة التي هو مستعدٌ لتقديمها في ساحة المعركة.

الفصل الخامس عشر

واقعة ذات السلاسل

الامام (ع) ومعركة ذات السلاسل * الدلالات العلمية للنصوص: 1- ماكنة تزوير التاريخ. 2 - بين فرص الحرب والرغبة في القتال: أ - التأثر الصميمي بالقائد (ع). ب - علي (ع) وفرصة الحرب. ج - علي (ع) والرغبة في القتال.

الامام (ع) ومعركة ذات السلاسل

وهي غزوة وادي الرمل التي وقعت في السنة الثامنة من الهجرة⁴¹.

فقد بعث رسول الله (ص) الى اهل وادي اليايس «ذات السلاسل» عدداً من الصحابة كأبي بكر وعمر، فكان كلُّ منهم يرجع الى رسول الله (ص) ولا يقاتلهم. الى ان بعث (ص) علياً (ع) الى تلك المنطقة فأوقع بهم. و«سميت هذه الغزوة ذات السلاسل لانه (ع) اسر منهم وقتل وسيى وشد اسراهم في الحبال مكتفين كأنهم في السلاسل. ولما نزلت سورة [العاديات] خرج رسول الله (ص) الى الناس فصلى بهم الغداة وقرأ فيها: (والعاديات ضبحاً . فالموريات قدحاً)⁴² فلما فرغ من صلاته قال اصحابه: هذه سورة لم نعرفها. فقال رسول الله (ص): نعم ان علياً ظفر بأعداء الله وبشرني بذلك جبرئيل (ع) في هذه الليلة، فقدم علي (ع) بعد ايام بالغنائم والاسارى»⁴³.

والقصة⁴⁴ ان اهل وادي اليايس اجتمعوا في اثني عشر الف فارس وتعاهدوا وتعاهدوا وتواثقوا على ان لا يتخلف رجل عن رجل ولا يخذل أحداً أحداً ولا يفر رجل عن صاحبه حتى يموتوا كلهم عن حلف واحد او يقتلوا محمداً (ص) وعلي بن أبي طالب (ع). فنزل جبرئيل (ع) على محمد (ص) وأخبره بقصتهم وما تعاهدوا عليه وتواثقوا وامره ان يبعث ابا بكر اليهم في اربعة آلاف فارس من المهاجرين والانصار، ولكنه رجع اعتقاداً منه بان القوم من اهل اليايس اكثر منهم عدداً وأقوى منهم عدّة. فنخالف امر رسول الله (ص) بذلك. ثم بعث النبي (ص) عمر بن الخطاب في المرة الثانية، ولكنه رجع بنفس مقالة ابي بكر.

فدعا علياً (ع) وأوصاه بما اوصى الاول والثاني واصحابه الاربعة آلاف فارس واخبره ان الله سيفتح عليه وعلى اصحابه. فخرج علي (ع) ومعه المهاجرون والانصار فسار بهم سريعاً حتى خافوا ان ينقطعوا من التعب وتحفى دواهم، فقال لهم: لا تخافوا، فان رسول الله (ص) قد أمرني بأمر وأخبرني ان الله سيفتح علياً وعليكم فابشروا فانكم على خير والى خير. فطابت نفوسهم وقلوبهم وساروا على ذلك السير والتعب حتى اذا كانوا قريباً منهم حيث يروهم ويراهم، امر أصحابه ان ينزلوا وسمع اهل وادي اليايس بقدوم علي بن ابي طالب واصحابه، فخرج اليه منهم مائتا رجل شاكين بالسلاح. فلما رآهم علي (ع) خرج اليهم في نفر من اصحابه فقالوا لهم: من انتم ومن اين انتم ومن اين اقبلتم واين تريدون؟ قال: انا علي بن ابي طالب ابن عم رسول الله (ص) اخوه ورسوله اليكم. ادعوكم الى شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله ولكم ان

⁴¹ (الظاهر ان هذه المعركة وقعت قبل فتح مكة، وكان فيها ردعاً عظيماً لقريش بالتخلي عن محاربة المسلمين).

⁴² (سورة العاديات: آية 1 - 2).

⁴³ («مجمع البيان» - الطبرسي ج 10 ص 528).

⁴⁴ (رواه علي بن ابراهيم القمي باسناده عن ابي بصير بن ابي عبد الله (ع) في قوله: (والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً)، واوردها ملخصة).

آمنتهم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم من خير وشر. فقالوا له: اياك اردنا وانت طلبتنا قد سمعنا مقاتلك وما عرضت علينا فخذ حذرك واستعد للحرب العوان، واعلم إنا قاتلوك وقاتلوا اصحابك والموعد فيما بيننا غدًا ضحوة، وقد أعدرنا فيما بيننا وبينكم.

فقال لهم علي (ع): ويلكم! تهددوني بكثرتكم وجمعكم فانا استعين بالله وملائكته والمسلمين عليكم، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم، فانصرفوا الى مراكزكم. وانصرف علي (ع) الى مركزه. فلما جت الليل أمر اصحابه ان يحسنوا الى دوابهم ويقضموها ويسرجوا، فلما انشق عمود الصبح صلى بالناس بغلس⁴⁵ ثم اغار عليهم باصحابه فلم يعلموا حتى وطأهم الخيل. فما ادرك آخر اصحابه حتى قتل مقاتليهم وسبى ذراريهم واستباح اموالهم وخرب ديارهم واقتل بالاسارى والاموال معه. ونزل جبرئيل (ع) فأخبر رسول الله (ص) بما فتح الله بعلي (ع) وجماعة المسلمين. فصعد رسول الله (ص) المنبر فحمد الله وأثنى عليه وأخبر الناس بما فتح الله على المسلمين واعلمهم انه لم يصب منهم الا رجلا نزل. فخرج يستقبل علياً في جمع اهل المدينة من المسلمين حتى لقيه على ثلاثة أميال من المدينة. فلما رآه علي (ع) مقبلاً نزل عن دابته ونزل النبي (ص) حتى التزمه وقبل ما بين عينيه. فنزلت جماعة المسلمين الى علي (ع) حيث نزل رسول الله (ص) واقتل بالغنيمة والاسارى وما رزقهم الله به من اهل الوادي اليابس. قال الامام جعفر بن محمد (ع): ما غنم المسلمون مثلها قط الا ان يكون من خير فانها مثل ذلك. وانزل تبارك وتعالى في ذلك اليوم هذه السورة (والعاديات ضحاً)⁴⁶. وأورد صاحب تفسير البرهان موجزاً عن الغزوة في ذيل سورة العاديات⁴⁷.

قال السيد الحميري يصف الغزوة:

غداة أتاهم الموت المبير	وفي ذات السلاسل من سليم
وصاحبه مراراً فاستطيروا	وقد هزموا ابا حفص وعمرواً
فحل النذر او وجبت نذور	وقد قتلوا من الانصار رهطاً
جحاححة يسد بها الثغور ⁴⁸	أزاد الموت مشيخة ضحاً

وعندما استقبل النبي (ص) علياً في اطراف المدينة قال: «الحمد لله يا علي الذي شد بك ازري وقوى بك ظهري، يا علي اني سألت الله فيك كما سأل اخي موسى بن عمران صلوات الله وسلامه عليه ان يشرك

(⁴⁵) الغلس: ظلمة آخر الليل. قال الأخطل:

غلس الظلام من الرباب خيالاً

كذبت عينك أم رأيت بواسط

والتغليس: السير من الليل بغلس «الصحيح» ج 2 ص 956 مادة: غلس.

(⁴⁶) «تفسير القمي» ج 2 ص 434. و«المنقب» - ابن شهر آشوب ج 3 ص 140.

(⁴⁷) «تفسير البرهان» - السيد البحراني ج 4 ص 498.

(⁴⁸) «المنقب» - ابن شهر آشوب ج 3 ص 142.

هارون في امره وقد سألت ربي ان يشدّ بك ازري. ثم التفت الى اصحابه وهو يقول: معشر اصحابي لا تلوموني في حب علي بن ابي طالب (ع) فانما حيي علياً من امر الله، والله امرني ان احب علياً وادنيه. يا علي من احبك فقد احبني ومن احبني فقد احب الله...»⁴⁹.

الدلالات العلمية للنصوص

لم تستطع ماكنة تزوير التأريخ نفي العلاقة الوثيقة بين فرص الحرب ورغبة علي (ع) الشديدة في قتال المشركين. فكانت تلك الرغبة المتعلقة بارادته (ع) في وضع نفسه في خدمة اهداف الحرب ضد الشرك، مقياساً حقيقياً لفضائله المثالية وتضحياته العظيمة من اجل الاسلام.

1 - ماكنة تزوير التأريخ:

كيف استطاع السلاطين تزوير ماكنة التأريخ بحيث ان تلك الواقعة مُحيت من الكتب التاريخية؟ وما هو حجم الماكنة الاعلامية والروائية التي حاولت مسح تلك الواقعة العظيمة من لوح التأريخ؟ تلك الواقعة التي قال عنها بعض المؤرخين بأنها اشهر مواقفه (ع) ايام النبي (ص)⁵⁰.

لا شك ان الباحث المنصف لا يجد بداً من الايمان بان ماكنة السلطان الضخمة في قلب الحقائق وتزوير المفاهيم، قد وجدت في معركة «ذات السلاسل» حقائق كبيرة ينبغي اخفاؤها عن الاجيال الجديدة. حتى لا ينتشر ذكر علي بن ابي طالب (ع) ولا يمتد فضله في ارجاء الدنيا والتأريخ.

فلم يذكر ابن هشام في سيرته غير القضايا الهامشية عن تلك الغزوة، فُيعتونها بعنوان: «غزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل» ويقول:

«وغزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل من ارض بني عُذرة. وكان حديثه ان رسول الله (ص) بعثه يستنفر العرب الى الشام. وذلك ان أم العاص بن وائل كانت امرأةً من بليّ، فبعثه رسول الله (ص) اليهم يستألفهم لذلك. حتى اذا كان على ماء بأرض جُدّام، يقال له السَّلْسَل، وبذلك سُمّيت تلك الغزوة، غزوة ذات السلاسل. فلما كان عليه خاف، فبعث الى رسول الله (ص) يستمده. فبعث اليه رسول الله (ص) أبا عبيدة بن الجراح في المهاجرين الاولين، فيهم ابو بكر وعمر؛ وقال لابي عبيدة حين وجهه: لا تختلفا. فخرج ابو عبيدة حتى اذا قدم عليه، قال له عمرو: إنما جئتَ مدداً لي. قال ابو عبيدة: لا، ولكني على ما أنا عليه،

⁴⁹ «بحار الانوار» ج 6 ص 593.

⁵⁰ «الغزوات» - النقدي ص 109.

وأنت على ما أنت عليه. وكانت ابو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً، هيناً عليه امر الدنيا، فقال له عمرو: بل انت مدد لي. فقال له ابو عبيدة: يا عمرو، ان رسول الله (ص) قال لي: لا تختلفا. وانك إن عصيتني أقطعك. قال: فآتي الامير عليك، وانت مددٌ لي. قال: فدونك. فصلى عمرو بالناس⁵¹. ومع ان النص يظهر ان ابا بكر وعمر كانا ضمن جنود الجيش ولم يكونا من قادته، ويُظهر الاختلاف بين عمرو بن العاص وابو عبيدة، ويُظهر حجم طموح عمرو بن العاص نحو الرئاسة وحب الدنيا، الا انه لا يُظهر طبيعة المعركة من حيث النصر او الهزيمة. فكيف يمكن لمعركة بتلك الضخامة ان تطوى من صفحات التأريخ لمجرد ان ابا بكر وعمر اهزما فيها، وانتصر علي (ع) على المشركين؟

هذا الامر يدعونا الى دراسة فلسفة التأريخ.

فلسفة التأريخ:

يعبر عن كل محاولة لاعطاء تفسير شامل وتوضيح كلي للعملية التاريخية بعبارة «فلسفة التأريخ». وعندما نتساءل عن: معنى التأريخ؟ وماهية اهدافه واغراضه؟ وماهية القوانين التي تحكم التطور التاريخي؟ ونحوها من تلك التساؤلات، فانما نبحت عن اجوبة تعطينا فكرة عن فلسفة التأريخ. ولذلك فعندما ندرس التأريخ، فاننا ندرس في الواقع المشاكل الكامنة وراء الاحداث التاريخية، وندرس العلل التي حكمت تلك الاحداث. ولذلك فنحن نتعلم من دراسة التأريخ كيفية التنبؤ بقضايا المستقبل في المجتمع الانساني. ان الارضية التي تفسر بها احداث التأريخ وتُنقل اما ان تكون لها اهداف دينية أو سياسية أو اجتماعية. ولذلك فان تلك الاحداث لا يُنظر اليها بنفس الشكل ونفس الصورة من قبل الجميع.

فبعض المؤرخين مثل ابن خلدون (ت 808 هـ) ينظر لـ «العمران الانساني» كشرط اساسي في صحة احداث التأريخ. فالحدث التاريخي ينسجم مع الحالة الاجتماعية السائدة⁵². ويرى اليعقوبي (ت 284 هـ) ان التأريخ الثقافي هو الذي يحدد طبيعة الاحداث التاريخية⁵³. بينما يرى المسعودي (ت 346 هـ) ان تواريخ الملوك والامم والسياسة هي التي تصنع الاحداث التاريخية⁵⁴.

⁵¹ («سيرة ابن هشام» ج 4 ص 272.

⁵² («تأريخ ابن خلدون» - المقدمة. ص 10، 31.

⁵³ («تأريخ اليعقوبي» ج 1 ص 84 - 160.

⁵⁴ («مروج الذهب» - المسعودي. ج 1 ص 80 - 255.

وبعض المؤرخين مثل كارل ماركس ينظرون للتأريخ على اساس انه خط مستقيم يصل الى اهدافه المرسومة. والبعض الآخر مثل ارنولد توينبي ينظر للتأريخ على اساس انه دوائر من التغيير تعيد نفسها في كل فترة تاريخية.

وعندما ننظر نحن الى التأريخ، فاننا لا ننظر له على اساس مجموعة من الاحداث المنفصلة. بل نراه مجموعة من الاحداث المترابطة التي يجمعها رباط معرفي علمي ينبغي ان يُدرس ويُحلل ؛ على قاعدة ان التأريخ يعكس ايضاً التفكير التاريخي في ذلك الزمان ويعكس تلك الحجج والبراهين التي يمكن ان تستخدم من اجل اقناع الافراد.

ولا شك ان تزوير الحقائق وقلب المفاهيم، من اجل خلق شخصيات فكرية استدلالية وهمية للاحداث، يرتبط مباشرة بتلك العملية التاريخية. فقد حاول الامويون وعلى مدى قرن كامل تزوير شخصية الامام علي (ع) من خلال شتمه على منابر المسلمين. وهنا كيف يستطيع المفكر بعد اربعة عشر قرناً فهم التفكير التاريخي ما لم يفضح التزوير الذي حصل في تلك الحقبة التاريخية؟

فمهمة المؤرخين في البحث عن الماضي واحداثه وعلله، يصطدم احياناً بأحداث فريدة في ذاتها ولا يمكن ان تتكرر مرة اخرى. وتلك الاحداث، كما انها تُنشئ انبهاراً بشخصياتها وافكارها، فانها قادرة على ان تنشئ صورة قابلة للإتهام بأنها مبالغ فيها وكاذبة. ومن هنا، فان تلك الاحداث، يمكن ان تصور في التأريخ على انها احداث لها نهايتان: اما التصديق المطلق او التكذيب المطلق بها. ومن تلك الاحداث قضية الامامة عموماً، وامامة امير المؤمنين (ع) بالخصوص، وقضية معركة ذات السلاسل بالاحص. فقد كان للمعركة قابلية _ في اطار المصداق _ لانشاء نهايتين هما: التصديق المطلق او التكذيب المطلق، لذلك فانها حُذفت من كتب التأريخ المتصلة بأعداء امير المؤمنين (ع). وكان من اهداف ذلك الحذف ان لا يكون لتلك المعركة دور تاريخي يضاف الى ميزات الامام (ع) وفضائله.

ولا شك ان العلية في التأريخ ينبغي ان تؤخذ بلحاظ الظروف التاريخية التي مرت بالحادثة ذاتها، ولا تؤخذ بالظروف التي نعيش فيها اليوم بعد اربعة عشر قرناً. ذلك ان قراءة التأريخ يعني قراءة لعل تلك الفترة الزمنية التي نقرأ أحداثها. فاذا كان علي (ع) قادراً على إلحاق الهزيمة بالمشركين في تلك الظروف الصعبة، فانه (ع) كان قادراً على نصر الاسلام وتثبيت موقعه في الحياة.

فالاحداث التي قد نستغرب ضخامتها الان في هذا العصر، فانما نستغربها لان عللها في الزمن التي حصلت فيه تختلف عن علل هذا الزمان. فالقدرة الحارقة للعادة عند علي (ع) على ساحات المعارك قد نستغربها اليوم، لاننا لا نعيش علل ومسببات تلك الفترة الزمنية ومنها عدم تعقد الحياة الاجتماعية ووجود

السيف كسلاح رئيسي في المعركة ووجود الفرس ونحوه من وسائل النقل والحرب. وتلك العلة استدعت وجود بطل عملاق يستطيع تحطيم قدرات العدو العسكرية وتدميرها.

الفكرة التاريخية:

ولكن السؤال المطروح اليوم هو: هل ان للفكرة التاريخية خصائصها المنطقية والفلسفية التي تقاوم كل محاولات التفسير والتأويل؟ لا شك ان الجواب يمكن ان يتركز على نقطتين:

الاولى: الشخصية الفلسفية للحدث التاريخي، وهل يمكن ان يُفسر بطرق مختلفة او لا؟ فهل ان واقعة ذات السلاسل لها تأثير على مجرى التاريخ مثلاً؟ وهل يمكن ان نستلهم منها العبر لحد اليوم؟ خصوصاً اذا عرفنا ان ابا بكر وعمر وعلياً (ع) كانوا المحركين لاحداثها سلباً أو ايجاباً.

ونعني بالشخصية الفلسفية للحدث هو ان الحدث التاريخي يستنطقُ عللاً منطقية ومباني عقلية يستأنس بها العقل البشري على مر العصور. فحادث نزول الوحي على رسول الله (ص) مثلاً له شخصية فلسفية عظيمة لانه يستنطق عللاً يستأنس بها العقل البشري مادام موجوداً على البسيطة. وواقعة ذات السلاسل تجري على نفس القاعدة، لان شجاعة علي (ع) فيها كانت علةً يتناغم معها العقل البشري الذي يميل الى هزيمة الاشرار من الكفار ويجب انتصار اهل التوحيد والحق.

الثانية: الشخصية المعرفية للحدث التاريخي، وهل يستبطن ذلك الحدث صلاحية موضوعية للاستمرار بالنظر اليه كحدث تاريخي؟ خصوصاً ان بعض الاحداث التي وقعت في التاريخ انتهت لوقتها، كما هو الحال في موت ابي سفيان مثلاً او اندثار دولة المناذرة او سقوط همدان.

ونعني بالشخصية المعرفية للحدث هو ان الحدث التاريخي يستبطن مصدراً للمعرفة يُنقل للاجيال المتلاحقة بعد انتهائه. ومعركة ذات السلاسل التي وضعت علياً (ع) اسطورة في البطولة على المسرح الاجتماعي، تعدُّ شجرة في المعرفة من حيث البطولة والتضحية والايثار والايمان بالله سبحانه والقدرة على تحطيم الشرك في الارض.

شروط تفسير «ذات السلاسل»:

ومن هنا لا بد لنا في تفسير الاحداث التاريخية من محاولة ربطها بسلسلة من الشروط والوقائع المترابطة. فالحرب الابتدائية مثلاً لا تكون عادلة ما لم يكن قائدها بطلاً عارفاً بالله سبحانه او معصوماً، والثورات

السياسية لا نستطيع فهم ابعادها ما لم نفهم الشخصيات التي تحركها من وراء الستار. فالشرطية والعلية هنا تسلطان ضوءاً على معرفة الحدث التاريخي وفهم دوافعه التاريخية. وهنا لابد من ترتيب النقاط التالية:

1 - القضية الشرطية في الحدث التاريخي، وهي القضية التي يتحدد جزاؤها متى ما تحقق شرطها مثل (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ) وهذا هو الجزء (حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)⁵⁵ وهذا هو الشرط. اما بخصوص المعركة فنقول ان بطولة الامام (ع) وتفانيه في معارك الاسلام كانت شرطاً للنصر. فالبطولة في (ذات السلاسل) كانت شرطاً، والنصر كان جزءاً لذلك الشرط.

2 - قضية العلية في الحدث التاريخي، وهي ان تفاني علي (ع) في المعركة وذوبانه في الله كان علة لهزيمة المشركين واذلالهم. وهذه علة تامة، تشتمل على جميع ما يتوقف عليه وجود المعلول، بحيث لا يبقى للمعلول معها الا ان يوجد.

3 - قضية تجميع وحدات بناء الحقيقة التاريخية وحده وحدة حتى يمكن فهم العلاقات الطبيعية بين كل مصداق من مصدايق تلك الصورة الكلية. فمن اجل ادراك مغزى الحادثة التاريخية او فهم الدوافع التي حركتها لابد من اشتراكنا في تصورهما مع الابطال الذين صنعوها في آمالهم ومشاعرهم وصدق احساسهم. ومن تلك القدرات الذهنية التي نبذلها في فهم التاريخ، نستطيع ان نربط العوامل التاريخية بعضها ببعض بصورة عقلانية ونخرج بعدها بتصور أقرب الى الواقع عما حدث. والموضوعية هنا ممكنة، بل حتمية من اجل استمرار فهم صادق للتاريخ. ذلك ان الصفات والتفاسير اذا كانت حقيقية، كان العمل التاريخي اقرب الى الموضوعية.

ولو وضعنا «ذات السلاسل» في الميزان الموضوعي، وربطنا تفاني الامام (ع) وبطولته في المعارك الكبرى السابقة، لجاءت هذه المعركة في موضعها الصحيح. فصفاة الامام (ع) الدينية والاخلاقية والعسكرية كانت متطابقة تماماً مع شروط تلك الواقعة العظيمة.

ان ماكنة تزوير التاريخ حاولت حذف واقعة ذات السلاسل لان الدوافع السياسية للسلطين وكتاب التاريخ كانت متضادة في محاولة محو المثاليات الدينية عند الامام (ع). ومع ان كفة كتاب تاريخ السلطين قد رجحت _ تاريخياً _ على كفة كتاب تاريخ الحق، فحذفوا النصوص ومسحوا البراهين والدلائل التي دلت على وقوع ذلك الحدث التاريخي الخطير. الا ان الصحف القليلة التي كتبت فيها الحقيقة بقيت تتداولها الايدي الامينة وتحافظ عليها بسفك المهج. لقد انحرف مؤرخو السلطين عن الحادة عندما تخلوا عن موضوعيتهم ونزاهتهم في عرض الحقائق التاريخية عرضاً مجرداً عن الدوافع السياسية.

(⁵⁵ سورة الرعد: آية 11).

وبالاجمال، لو سُئلنا: كيف استطاعت الماكنة الاعلامية تزوير التأريخ وحذف تلك الواقعة العظيمة، التي كانت اشهر مواقفه (ع) مع النبي (ص)، من صحائف التأريخ؟ وما هي اهدافها؟
لقلنا: ان الارضية التي تُفسَّر بها احداث التأريخ لها اهدافٌ سياسية. فالتحريف الذي يحصل في الاحداث التاريخية يرجع الى فكرة تغير العلية التاريخية. ومعنى اوضح ان الاحداث تؤخذ بلحاظ الظروف التاريخية التي مرت بالحادثة ذاتها، ولا تؤخذ بالظروف التي يعيشها الناس بعد مئات السنين. ذلك ان قراءة التأريخ يعني قراءة لعلل تلك الفترة الزمنية التي نقرأ أحداثها.
وبالنتيجة، فان حذف حدث تاريخي من كتب التأريخ، سيولّد شكوكاً في مصداقية ذلك الحدث بعد مئات من السنين. وكان هذا هو الهدف الذي سعى من اجله السلاطين والخلفاء، وهو حذف فضائل امير المؤمنين (ع) من كتب التأريخ، حتى لا يتسنى للذين يأتون من بعده من الاجيال المتلاحقة تصديق تلك الاحداث المتصلة بفضائله ومعجزاته (ع).

2 - بين فرص الحرب والرغبة في القتال:

هناك علاقة متينة بين فرص الحرب وبين الرغبة في القتال. وقد لاحظنا تلك العلاقة بصورة جلية في مقدمات معركة ذات السلاسل. فما هو دور تلك العلاقة في الصراع بين الشرك والايمان؟ تعني «فرص الحرب» امكانية تحقيق التحام عسكري بين الطرفين المتحاربين. اما «الرغبة في القتال» فهي تتعلق بارادة الانسان المحارب بوضع نفسه في خدمة اهداف الحرب، فلا يكثر حينئذٍ بالقتل او الجرح او تكبد الخسارة. فقد يذهب الفرد الى المعركة ولكن ليست لديه الرغبة في القتال. لانه قد يؤمل نفسه بضعف احتمالية تحقيق الالتحام العسكري بين الطرفين.

ولذلك، فان أي موقف سلمي يلمسه من قبل العدو _ كشراسة الاعداء وحسن عدتهم وكثرتهم _ يجعله يتلمس الاعذار للهروب من ساحة المعركة والفرار صوب الامان والحفاظ على النفس. وهذا ما حصل للذين ذهبوا الى المعركة قبل علي (ع). اما البطل المقدم الذي كان يحارب في سبيل الله، فانه ما ان لبس لامة الحرب، حتى بنى في نفسه وعقله رغبة جامحة في الاقتحام والمقاتلة والموت في سبيل الله تعالى. وهذا ما قام به علي (ع) في تلك المعركة.

فالرغبة في القتال، اذن، لها علاقة بالدوافع والاهداف التي يمتلكها المحارب حيث يختار الحرب كبديل رئيسي لتحقيق الهدف. ومن هنا نرى اقتحام الامام (ع) لتحصينات العدو في ذات السلاسل كان اقتحاماً سريعاً كلمح البصر تموّنه شعلة الرغبة للقتال والتحرق لمواجهة اعداء الله. بحيث ان عدّوه السريع اعنف بهم،

فخافوا ان ينقطعوا من التعب وخافوا ان تحفى دواهم قبل ان يصلوا الى عدوهم. ولكن الرغبة الجارحة في قتال المشركين، والموت في سبيل الله كان يقوي فرص الحرب عند علي (ع) من اجل الالتحام بين جيشي المسلمين والمشركين.

أ - التأثير الصمي بالقياد (ع):

وهذا الجو المشحون بالرغبة في القتال من قبل القائد، يؤسس لتقوية رابط آخر بين كيان المحارب وبين المحيط الديني الذي يعيش فيه. فلا بأس ان نضع الموضوع على شكل التساؤل التالي: هل هناك امكانية تأثر الجنود بالمحيط القتالي الذي يُنشئه لهم قائدهم (ع)؟ وهل ان تلك الامكانية تنهض الى مستوى القطعية او الى مجرد الاحتمالية؟ من اجل الاجابة على ذلك لابد من ادراج ثلاثة وجوه:

الوجه الاول: امكانية تأثر الجندي بالمحيط البطولي للقيادة: فمن الممكن للمقاتل العادي التأثير بمحيط المقاتلين الابطال، وقد تصل تلك الامكانية الى مستوى القطع. فامكانية التأثير ببطولة القائد قضية طبيعية اذا تصورنا ان قدرات المجموع قدرات غير استثنائية، بينما يكون مصدر التأثير لمن كانت له القدرة الاستثنائية وهو القائد. فبطولة الامام (ع) كانت استثنائية بلحاظ كل المعطيات التاريخية التي نلمسها. فلا شك ان شخصيته الفذة (ع) كانت تشيع على المقاتلين جواً من التواضع والايمان العميق والبطولة الفذة والتأثر بتلك القدوة المتكاملة في الدين. فالامكانية هنا، وبلحاظ المعطيات التاريخية، تصل الى مستوى القطعية.

الوجه الثاني: احتمالية التأثير بالمحيط: والاحتمالية مرتبطة بمقدار التكهن بضخامة علم القائد وطهارة دوافعه نحو العمل العسكري. والاحتمالية هنا تعني لو ان نموذجاً بطولياً وجد على ساحة المعركة وهو يحمل علماً جماً ودافعاً ايمانياً نقياً لكان التأثير بذلك النموذج اقوى. ولكن الاحتمالية تعني نسبة مئوية من الحقيقة ونسبة اخرى من الوهم. وهذا لا يستقيم مع المصاديق القوية التي تحرك النفس الانسانية، التي نلمسها ونختبرها. فيكون الوجه الاول اقوى من الوجه الثاني.

الوجه الثالث: الاستقلال العقلي: وهو افتراض ان الجندي العادي _ غير الاستثنائي _ لا يتأثر بالمحيط القتالي أبداً، فيكون سلوكه سلوكاً عقلياً محضاً. أي ان بطولته او جنبه وجدا دون التأثير بأخرين يعتبرهم نماذج له. وهذا مما لم نجده في صفحات التاريخ. فلم يُبرز لنا التاريخ صورة جنود من هذا النمط. وهذا اضعف الوجوه.

فيتعين الوجه الاول، ونستفيد من ذلك ان امكانية تأثر جنود علي (ع) الاربعة آلاف في ذات السلاسل ببطولته كان امراً واقعياً. فلولا بطولة الامام (ع) لم يستطع ذلك الجيش تحقيق شيء على مستوى المعركة بمنظورها الجزئي والاسلام بمنظوره الكلي.

وفي ضوء ذلك نستطيع ان نقرر بأن الرغبة في القتال عند المؤمنين الموقنين كانت تحددتها عوامل وصفات ايمانية مثل: الاقتحام، ونكران الذات، واليقين، والبطولة. بينما تحدد الرغبة عند عموم الناس عوامل اخرى مثل: التريث في القتال، والتردد، والفرار من الزحف، وحبّ الدنيا، والخوف من الموت، ونحوها. ومن هنا ترى ان المؤمنين الموقنين بالله حقاً اقتحاميون في ساحة المعركة، لان دوافعهم لا تقبل تغييراً بعد ان تيقنوا بان الله معهم، وانهم يجاربون من اجل الآخرة، وان الله سيرزقهم احدى الحسينين اما النصر واما الشهادة. وعلى أي تقدير فان الذي نراه جندياً او قائداً في المعركة لا بد ان نلمس دوافعه في الرغبة في القتال: ايماناً و يقيناً، او تردداً ورجوعاً عن القتال. لقد كان حبّ الموت ولقاء الله تعالى والكرّ ونكران الذات اهم صفات جيش ذات السلاسل بقيادة الامام (ع). بينما لمسنا من الآخرين حباً في الفرار وطلباً للعافية، كما سوف نلاحظ في الفصول القادمة فرار ابي سفيان وأولاده يوم حُنين، وتراجع البعض في خيبر وذات السلاسل، وفرارهم في حُنين ايضاً.

ب - علي (ع) وفرصة الحرب:

ذكرنا ان فرصة الحرب تعني امكانية الالتحام بين الايمان والشرك في معركة حاسمة ينتصر فيها هذا الطرف على الآخر. ففرصة الحرب للقائد البطل تعني انه سوف يستثمر طاقاته البطولية في سحق العدو وتدمير قدراته العسكرية. بينما يرى الخائف من الحرب ان فرص الحرب هي فرص للموت الذي ينبغي الفرار منه ان امكن، او عدم التقدم في الخطوط الامامية وترك القيادة العسكرية لآخرين، او الحصول على غنائم عندما تحين الفرصة لذلك. ففرصة الحرب ، اذن ، تعبّر عن مقارنة عسكرية دامية بين عدوين متحاربين يحاول كل منهما إفناء الآخر وافناء معتقداته معه.

ومن هنا كان الامام (ع) يحاول جاهداً خلق فرصٍ للحرب من خلال تصميمه شكل الالتحام بين المعسكرين. فكان (ع) يشرع في السير نحو العدو، وكان (ع) يقف في المقدمة في كل معركة يخوضها، وكان (ع) ينتخب من مقاتلي المشركين النخبة فيبارزهم ويفنيهم عن بكرة ابيهم. ثم يبدأ جيشه _ وبعد ان رأى قائده (ع) في المقدمة يواجه الموت حقيقة _ بالتحرك لمنازلة العدو.

ج - علي (ع) والرغبة في القتال:

ان الرغبة في القتال لها علاقة مباشرة بالسلوك العقلي. فالرغبة في القتال هي التي تصنع القرار النهائي للمشاركة في الحرب او الالتحام مع العدو. والقرار النهائي للمشاركة في القتال مرهون بالصور الذهنية التي يكونها ذهن القائد المقاتل عن العالم المحيط به وعن الوضع الميداني الذي سيواجهه وهو في المعركة. ومن تلك الصور الذهنية التي تصنع القرار النهائي بالذهاب للحرب: حسابات الربح والخسارة في المعركة، او حجم الاهداف المتوخاة من القتال.

وكانت حسابات الامام (ع) في قراره النهائي في القتال هو مقدار الفائدة التي يجنيها الاسلام من المعركة فهو (ع) لم يفكر بحسابات مادية او دنيوية او شخصية. بل كان (ع) لا يرى بديلاً عن الحرب ضد المشركين على ضوء قوله تعالى: (قاتلوهم يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)⁵⁶ ، (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَأَوْاهُمْ جَهَنَّمَ وَبئسَ الْمَصِيرُ)⁵⁷ ، (إنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)⁵⁸ .

فليس هناك خسارة في حرب مع الكفار، فلا بد ان يرزق المسلم المقاتل احدى الحسينيين اما النصر واما الشهادة. ولذلك كان مجرد اسم علي (ع) في المعركة يعني كسر شوكة الشرك، واحقاق الحق، وتحقيق النصر المؤزر للاسلام.

اذن ليس هناك من بديل لكسر شوكة المشركين غير الحرب والجهاد في سبيل الله بالسيف. لان البدائل الاخرى محدودة وضيقة. فهل ينفع الكلام وتنفع الالفاظ المحملة بالمعاني الجليلة لاقناع المشركين بأحقية الرسالة الالهية؟ وهل ينفع الاسلوب المسالم في حمل المشركين على التخلي عن شركهم وعبوديتهم لغير الله؟ لا نستطيع ان نتصور ذلك، ولذلك فان البدائل المتوفرة غير الحرب في ذلك الزمان بدائل محدودة وضيقة. فالحرب ضد الشرك اذن كانت قضية حتمية لا مفرّ منها ابداً.

يضاف الى ذلك ان المناخ الذي كان يسيطر على المسلمين يومئذٍ يمكن تلخيصه بالموارد التالية:

1 - كانوا قلةً مستضعفة تخاف ان يتخطّفها الموت.

⁵⁶ سورة التوبة: آية 14 - 15.

⁵⁷ سورة التوبة: آية 73.

⁵⁸ سورة التوبة: آية 111.

2 - كانت تهديدات المشركين وعداوتهم قائمة.

3 - كانت اراجيف المنافقين فعّالة في التأثير على شريحة من الناس.

4 - كان الرعب والخوف وعدم الامان والبعد عن الوطن من العوامل المقلقة لبعض الناس.

كل ذلك كان يضيف _ بالحاح _ الى الحاجة لبروز مقاتل لا يهاب الموت، ولا يعرف الخوف طريقاً الى قلبه. يقاتل وهو العضد الايمن لرسول الله (ص). فكان علي بن ابي طالب (ع) هو ذلك المقاتل الذي قلب المعارك لصالح المسلمين ضد المشركين.

وبذلك اصبح مجرد الاعلان عن مشاركة الامام (ع) في المعركة، حربة نفسية رهيبية ضد المشركين ودافعاً عظيماً للمسلمين بالشعور بالنصر والاستعداد لتهيئة مقدماته. خصوصاً وان معركة «ذات السلاسل» كانت قد اثبتت ذلك دون ادنى شك.